خطبة بعنوان: العبودية

يوم الجمعة: ١٤/٠٤/١٤٤٠هـ لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد...

فيا أيها المسلمون...يختار الله تعالى من عباده، ويصطفي من خلقه، فيوفقهم لعبادته، ويصرفهم لطاعته، وهذا هو الشرف العظيم، والمقام الكبير الذي وصف الله به أنبياءه، ورسله:﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[النساء: ٤٥-٤٦]

وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ وهو أفضل الناس، وسيد الخلق في أعلى مقاماته، وأشرف أحواله بوصف العبودية فقال سبحانه في مقام الإسراء:﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾[الإسراء: ١]، وقال سبحانه في مقام التحدي لأعدائه:﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾[البقرة: ٢٣]، وقال سبحانه في مقام الدعوة إلى الله تعالى :﴿وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن: ١٩]، وقال سبحانه في مقام الوحي، والتشريف بالتنزيل:﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[النجم: ١٠]

والناس بين فريقين إما أن يكونوا عبيدًا لله تعالى بالتزام طاعته، وتحقيق توحيده، واجتناب معصيته، وإما أن يكونوا عبيدًا لغيره، فإما أن يشرف العبد بعبوديته لربه، وإما أن يكون رقيقًا وعبدًا عند غيره، فإما أن يكون عبدًا لهواه ولنفسه الأمارة بالسوء:﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان:٤٣]، وإما أن يكون عبدًا للشيطان، وأتباعه، وخطواته، وتزيينه. قال عز وجل:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يس: ٦٠]، وإما أن يكون عبدًا لماله وشهوته. في البخاري ومسلم: ((تعِس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس و انتكس، وإذا شيك فلا انتقش)).

أيها المسلمون... وإذا نال العبد عبودية الله تعالى، وحققها بتحقق شرطين فيها: الشرط الأول الإخلاص لله بأن يكون قصده من العبادة وجه الله تعالى، والدار الآخرة:﴿...فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾[الزمر: ٢] :﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾[البينة: ٥]، وإذا كان في العمل تخليطٌ، وإرادة غير الله تعالى كان حابطًا وباطلًا:﴿...وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٨٨] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]

والشرط الثاني الذي لا تصح العبادة إلا به: المتابعة لرسول الله ﷺ، فلا يؤدي العبادة إلا وفق سنته، وحسب هديه عليه الصلاة والسلام، ومن لم يعمل بذلك كان عمله مردودًا عليه. في البخاري ومسلم: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)).

أيها المسلمون... وهذه العبادة تُؤدى محبةً لله تعالى، بشهود آلائه ونعمائه على العبد، فيحب العبد ربه لما يرى من نعمه عليه، وآلائه عليه في ستره، ولطفه، وعافيته، وعطائه، وبره، وإحسانه فيؤدي العبادة محبةً لله تعالى، ويؤدي المسلم عبادة ربه خوفًا من الله سبحانه إذا علم بعقابه، وما أعده لأعدائه، ويؤدي العبد العبادة لله تعالى رجاءً لثوابه، وما أعده لأوليائه ﴿...فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠]

أيها المسلمون... وإذا حقق العبد العبودية لله تعالى نال أشرف المطالب، وأعلى الرغائب، وهي جنة الله سبحانه التي أعدها لأوليائه ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ* ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[الزخرف: ٦٨-٧٠] وإذا حقق العبد العبودية لله تعالى نال حفظه ورعايته ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر: ٣٦]، وإذا حقق العبد العبودية لله تعالى تحقق له النصر والتمكين في الأرض﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾[النور: ٥٥]، ومن حقق العبودية لله نجا من كيد الشيطان، وحبائله، وأتباعه﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾[الحجر: ٤٢]، وإذا حقق العبد العبودية لله تعالى حصل على الهداية، ونجا من الغواية، والضلالة﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ١٧-١٨]

أيها المسلمون... وإذا أقبل العبد على عبادة الله تعالى بصدقٍ، ورغبةٍ، وإخلاصٍ، مع مجاهدة النفس على ذلك ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩] يثيبه ربه بأن تكون العبادة ملازمةً له

مقارنةً له في حياته كلها، فلا يجد راحته، ولا يجد أُنسه إلا في طاعة ربه، فيشرح الله صدره للعبادة ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ...﴾[الأنعام: ١٢٥] ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ...﴾ [الزمر:٢٢]، فيقبل على العبادة إقبال الراغب فيها، المقبل عليها، وهذا من أعلى المراتب، وأعظم المقامات، ولا يكون إلا لمن اختاره الله تعالى، واصطفاه؛ ليكون من عباده الذين لا يجدون راحتهم، ولا يجدون أُنسهم إلا بطاعة ربهم، وأشار النبي ﷺ إلى هذا الملحظ كما عند البخاري((سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وذكر منهم"ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد))، وذكر هذا الملحظ في طائفةٍ أخرى :((وشابٌ نشأ في طاعة الله))، فإذا جاهد العبد نفسه على طاعة ربه في أول الأمر، وعلم الله تعالى صدقه، وإخلاصه، ورغبته أعانه على ذلك، ويسر له سبل العبادة، وعلق قلبه بها.

ولهذا فالإنسان يرجع إلى المعيار في ذلك، فإن وجد في نفسه رغبةً في العبادة، وإقبالًا عليها، ووجد انشراحًا لصدره عند أدائها فليحمد الله على ذلك، وليسأل الله القبول، وليلزم الجادة. فإنه على الهدى المستقيم، وأما إن كان يجد ضيقًا في صدره، وحرجًا في نفسه، وإعراضًا، ونكوصًا، وإدبارًا فلينعَ نفسه إلى نفسه، وليبادر بالتوبة، وليسارع بالإنابة، فإن الناس إما أن يكونوا أحياءً بطاعة ربهم، وعبادة خالقهم، وإما أن يكونوا أمواتًا بالإعراض عن طاعته، والنكوص عن عبادته حتى وإن تردد الهواء في أجوافهم.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وتقبل الله مني ومنكم تلاوته إنه هو السميع العليم، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه من كل ذنب إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا...

اعلموا أن الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بكم أيها المؤمنون فقال جل من قائلٍ عليمًا ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]

اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وعن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بمنك وكرمك وجودك وإحسانك يا رب العالمين.